بين العقاد والرافعي

«سارة» وغزل العقاد

للأستاذ سيد قطب

— ١٣ —

حديثي اليوم عن «سارة» وعن غزل العقاد، فما يصح — في الحقيقة — أن يكون إلى جانب الفن الممتاز، والحياة الدافقة، والعبقرية المرموقة، مجال للأحاديث التافهة، والجدال العقيم، والطبائع المغلقة. نحن هنا في حرم مقدس، فلا يليق تدنيسه بالأهاذير!

ولقد كنت أخذت بعد إجمال الرأي في مكانة سارة من الأدب، أشخص بعض خصائصها. وسأتم اليوم ما بدأت؛ إلا أن هناك ملاحظة أحب أن أعرضها. فالقارئ لسارة، المتتبع لمواقفها وحالاتها النفسية، التي تُجسَّم حتى تصبح شخوصاً ملموسة، يجد كثيراً من الحالات والشخوص التي تشابهها في قصائد العقاد الغزلية؛ وقد مثلت لهذا في الكلمة الماضية بقطعة «الحان والمسجد». وليس هذا عجيباً، فالعقاد هو خالق هذه الشخوص هنا وهناك، ولكنه جدير أن يلفت النظر بدلالته على أن شخصيتي «همام وسارة» عميقتان في نفس المؤلف، وأنه استوعبهما في نفسه وحسه قبل أن يبرزهما على الورق «قصة» ومن هنا كانت حياتها، وكان امتيازها. وسيرى القارئ أمثلة أخرى للتوافق أو التشابه بين كثير من الشخوص النفسية في القصة وفي الديوان

* * *

من الخصائص الفريدة في «سارة» تلك الملاحظة الدائبة على تسجيل الحالات النفسية وإبرازها وتحليلها. فما من خطرة خاطرة، أو خلجة عابرة، إلا وهي واضحة مرسومة، تبلغ في وضوحها حد التشخيص. وفي هذا القول ما يشمل الخاصية الأولى التي أشرت إليها في الكلمة الفائتة من التفات همام إلى «كل ذرة في نفس حبيبته وكل لحظة من لحظات حبه» ولكنني أعني هنا أكثر مما عنيت هناك، أعني الحالات النفسية التي أحس بها همام، أو أحستها سارة، أو أحساها معاً في مدي حبهما كله. فمن هذه الحالات تبرز شخوص شتى، تساوي أحفل القصص بالشخوص الحقيقية التي تعيش في الحياة. والواقع أن «الشخوص النفسية» كما أسميها في «سارة» أعمق، والالتفات إليها أصعب، لأنها تعيش في نفس من يرصد نفسه لملاحظتها وتسجيلها! فهي في حاجة إلى طاقة فنية كبيرة، وإلى ترتيب عقلي محكم، لكشفها وإبرازها

وكل شخص من تلك الشخوص لا يقل أصالة وفنية عن سواه، ولكنا نختار:

بعد قطيعة همام لسارة لقيته مصادفة، ودار بينهما حوار، واتفقا على أن تزوره في الساعة الخامسة موعدها القديم للقاء. ولكن هماماً كان قد ذاق قبل القطيعة ما ذاق، ثم آوى إلى ركن شديد واعتصم بالفراق والسلوان الكظيم. فلما كان هذا اللقاء المفاجئ، عادت إليه عقابيل الداء، ولم يعد مصمماً على انتظارها ولا مصمماً على لقائها، و«العقاد» يصفه في يوم الموعد:

«ثم استيقظ في الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقاً غريباً يجهل ما عنده من نية وشعور؟

«أتنوي أن تنتظرها في الموعد»

«فما هو إلا أن وضح السؤال في خاطره، حتى شعر بأنه سؤال غريب، يدل على ما وراءه، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار!

«وهنا دارت في سريرة هذا الرجل — هذا الرجل الواحد — مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين كلاهما مصر على عزمه، وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله إلى رأيه، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه في هذا الحوار من أساليب الاقناع والاغراء والرياء والتصريح

— كيف لا تنتظرها؟ أتعطى سيدة موعداً ولا تنتظرها فيه؟ أهذا يليق برجل؟

— ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات، ولا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتي تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف

إن هذه المجاملات أو هذه القيود لا حساب لها فى العلاقات التى انطلقت من جميع القيود

— ولكن مم عساك أن تخاف ؟ انتظرها وقل لها : إنك لا تريد أن تراها بعد هذا الموعد !

— عجباً ... أتجهل ما أخافه ؟ أتجهل تلك الآلام التى لا حيلة فيها لمخلوق، ولا تزال تبتدئ من حيث تنتهى ، وتنتهى من حيث تبتدئ ، لأنها تبتدئ وتنتهى من الشكوك ، وليس للشكوك قرار حاسم ولا مقطع يقين ؟ أتجهل تلك الأشباح اللئيمة التى تطل عليك فى أطيب أوقاتك فتنغص عليك كل لذة ، وتكدر عليك كل صفاء ؟

— لكن علام كل هذه الشكوك التى ليس لها أول ولا آخر ... اصرفها عنك مرة واحدة ، وافرض أسوأ الفروض ، وقدر أنها تخونك ، وأنك تلهو بها فى ساعات فراغك ، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك إخلاص ولا خداع

— أأنت مخلص فيما تقول ؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التى كانت كل نساء الأرض عندي ، وكل ما يخفق له قلبى ، فتصبح بين مساء وصباح ، وهى لهو ساعة ، ومتعة فراغ ؟ أهذا خداع يجوز على إنسان ؟ أو تضمن إذا أنا اتخذتها لهواً ومتاعاً ألا يتمكن اللهو ويطيب المتاع ، وأننا لا ننكئ بعد أيام أو بعد أسابيع إلى استئراقنا القديم ، وشكوكنا القديمة ، وعذابنا الأليم ؟ لا ، لا هذا مجال باطل ، واستدراج لا يستر ما وراءه ، وتزوير لا أرضاه

— « لكن الفتاة مليحة مع ذلك .. تصور بضاضتها وهى جالسة إلى جانبك فى المركبة، وأنفاسها وهى تهب على خدك فتسرى فى جميع أوصالك، وقبلتها وهى ترتعش على شفتيك، وحلاوتها وقد زادها التحول فى هذه الأشهر حلاوة على حلاوة ، وتحولها نفسه وما ينبىء عنه ويكشفه لك من المودة والحنين ، وتصور ذلك كله بين يديك فى مدى بضع ساعات ، وأنت مع هذا تفكر .. تفكر فى ماذا ؟ فى نبذ هذه النعمة التى تبسى إليك ، وفى الخوف والجبن والفرار !

— « هذا حق كله . إن الفتاة لمليحة ولا نكران .. ولكن !

— « ولكن ماذا يا أخى .. ! انتظرها واله بها ، ولا تدعها لغيرك ينال منها مالا تنال .... ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين ، وأنت رجل ذو عزيمة ومضاء ، فاذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبل ، وإلا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور .

— « عزيمتى ؟ وأين هى عزيمتى إن كانت لا تنجدنى فى هذا النزاع العنيف ؟

— « إنها تنجدك فى كل حين ، ولكنك أنت لا تريدها الآن ... لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة ، ومتى أردتها غدا فهى حاضرة لديك ، وهى فى كل ساعة طوع يديك .. ومع هذا ألا يشوقك أن تستمع إلى حديثها عن أيام القطيعة بينكما ؟ ألا يجوز أن تفسر لك بعض الغوامض ، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر ، وتصف لك من حالها فى غيابها عنك ما يهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء ؟ .

« وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة فى هذا الحوار الحثيث ولا قرار

« وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار

« وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار

« نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا ، أو صاحبانا المتحاوران ، على أصح التعبيرين . غير أن الذى حدث بعد ذلك يدل دلالة لاشك فيها على أن الانسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره ، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم ينفردا باليدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف ، وإنما كان معهما ثالث لا يدريان به ، وهما ماضيان فى الاقناع والانكار .

« ففى الساعة الرابعة وبضع دقائق — والحوار على أشده بغير قرار — وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ، ويفتح باب حجرته ، وينحدر على الدرج ، إلى حيث لا يعلم إلا أنه خارج من المنزل وكفى . ومضى فى طريقه مهرولا كمن يمضى إلى غاية معلومة يخشى أن يفوته لحاقها ، وركب سيارة لم يعرف إلى أين تحمله إلا بعد أن استقر فيها ، واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثا لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود !

« ثم ساوره القلق ، ودلف إلى منزله بالسرعة التى فارقه بها ، واستحالت كل حيرته قبل الخروج إلى حيرة أخرى ، أوشوق

آخر : وهو أن يعرف ما حدث فى غيابه بجميع تفصيلاته : هل حضرت في الساعة الخامسة أو حضرت قبلها أو بعدها؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه ؟ وما بدا على وجهها وهى تصدم بهذه « المقابلة » ؟ وإذا كانت لم تحضر فما الذى عاقها عن موعدها ؟ ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها ؟ هل ضربته وهى تنوى أن تخلفه من اللحظة الأولى ، أوطرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها ؟»

أما الذى حدث بعد هذا ، فى القصة نبؤه . وإلى هنا يستطيع القارىء أن يدرك الصدق والبراعة والامتياز فى تصوير هذه الشخوص النفسية . ومتى علمنا أن القصة حافلة بها ، أدركنا قيمتها الفنية ، وقيمتها كذلك فى الدراسات النفسية العالية .

ولعل مما زيده هذه الحالة وضوحا قراءة هذه الأبيات بعنوان « النعيم المفقود »

فيم اجتنابك ظلها الممدودا ؟ ولم اتقاؤك يومها الموعودا ؟
ولأى طارقة كرهت مزارها وذممت طالعه ، وكان حميدا ؟
تلك المآلف كنت تهتف باسمها كيف اجتويت جنابها المعهودا ؟
تخشى الإلمام بها وتفزع أن ترى شفة تردد ذكرها ترديدا
كانت سماء كما فأصبح وردها كالقبر يغشاه النزيل وحيدا
وغدت كأنك حيث تقبل واجد شبحاً هنالك للنعيم شريدا
الآن فاستقبل بكل محلة رصداً يردك هائماً مزءودا
وأقم لنفسك فى منازل لهوها منفى على قرب الديار بعيدا
لا النيل مطروق الرياض ولاحمى خوفو على تلك الذرا مقصودا
وترى دواعى «عين شمس» بدلت لمنات شؤم ينتحين طريدا
يجنى عليه بشوشها ويذوده ما كان يجذبه إليه سعيدا
وجدا الجحيم بكل أرض من رأى فى حيث سار نعيمه المفقودا

وإذا كنت لا أستطيع أن أستقصى الحالات النفسية فى القصة ، فلابد أن أشير إلى حالة الشك من ص ٢٤ إلى ص ٢٧ فى القصة ، وأن أنصح طلاب الأدب النفسى الرفيع بمراجعتها وقراءة قصائد : « يوم الظنون ص ٣٢٧ والحب المريب ص ٣٢٨ من الديوان . وكذلك فصل « القطيعة » والوحى الفنى لحالة همام وسارة قبلها ، وهما يندفعان فى القرب واللقاء ، ويندفعان فى الوقت ذاته إلى القطيعة من حيث يشعران أو لا يشعران ! ، ولا يكون للحب من غذاء فى هذه الفترة إلا قوة الاستمرار من الماضى ، وخوف المستقبل ، لا الرغبة فى البقاء والدوام وذلك من ص ٨٦ إلى ص ٩٠ من القصة . ومثلهما حالة « همام » بعد اليقين وسفر أمين فى ص ١٩١ من القصة ومعها قصيدة اليقين ص ٣٣٩ وقصيدة السلو ص ٣٣٥ من الديوان

* * *

وفى قصة « سارة » عقد المؤلف فصلا بعنوان « لماذا هام بها ؟ » تقرأ هذا الفصل فترى فيه التفسير الكافى لا لحب «همام» بل كذلك لغزل « العقاد » كله فى دواوينه ، وتلمح فيه ذلك النضوج الفنى والنفسى الذى ألمنا إليه فى خصائص « سارة » الأولى .

فقد « هام بها » أولاً : لأنها تعمقت فى حياته ، وتعمق فى حياتها رويداً رويداً ، وكانت الطبيعة من ورائهما تدفعهما إلى هذا التعمق ، وتوغل بهما فى دروبها ومنحنياتها ، وهما يلتذان هذا الإيغال ؛ لأن الالتذاذ به وديعة مذخورة فى نفسيهما من ودائع الطبيعة الأزلية

« وهام بها » ثانياً : كما يقول لأنه وجد « لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويع ، فإن الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ، ويسره ألا يزال واجداً فيها كل حين ميدانا جديداً للاستكشاف ، ويسره أن يراقب المرأة وهى تستكشفه وتتخذ لها منسرباً إلى عواطفه ، وترفع من دخائله حجاباً وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معاً ، والناس معاً والطبيعة معاً ، بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شفوف وتجديد ، وآفاق تنساح إلى آفاق

« فإن وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سبباً للسآمة والعزوف لا سبباً للشغف والهيام

« إن المرأة فى استكشافها الرجل لكن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدى أولاً وآخراً إلى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة إلى تلك الرهبة ، ثم يرتع فى صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها

« وإن الرجل فى استكشافه المرأة لكن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدى إلى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها . فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها ، وهى

تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه ، ثم تصبح الروضة روضة وغابة، وتصبح الغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به إذا خرجا إلى الدنيا ، ولا يشعران به وهما بنجوة منها

« وكان هام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان ، بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه ، كأنهما رحالتان فى نزهة طويلة ، يشتركان في مراجعة عمل النهار كلما سكنا إلى ظلال الخيمة فى المساء

« كان يراقبها فى نفسها ويراقبها فى نفسه ؛ كان يرى المرأة المرحة الطروب وهى تلهو وتعبث ، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهى تلتمس الأمان والعزاء ، ويرى الأنسانة الفطرية وهى تطيع الغريزة وتلبس « دورها » على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها ، ويرى المرأة الذكية وهى تقرأ الشعر ، وتنتقد الصور المتحركة ، ويرى المرأة العصرية وهى تتغلب على امرأة الجيل الغابر فى ميدان ، وتخضع لها وتهزم أمامها فى ميدان ، ويرى من وراء ذلك جميعه، وفى كل ذلك جميعه، المرأة الخالدة التى لا تتحول ولا تتبدل ، و « الأنثى » السرمدية التى يهمها من « الذكر » الحماية والجاه قبل كل شىء وبعد كل شىء ، ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب إلا لأنها وجه من وجوه الحماية والجاه »

و « هام بها » ثالثاً : لأنهما « مازالا يتكاشفان ويتكاشفان حتى علما أنهما مكشوفان لا يتواريان فى جنة لا ينبت فيها ورق التين ، فكان هذا التكاشف سبباً ثانياً من أسباب هيام هام

« ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة فى أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر : من شاء أن يسميها حباً فهو صادق ومن شاء أن يسميها بغضاً فهو صادق ، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه، ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه . فقصارى القول أنه يتعاطاه ، وأن الاقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة »

و « هام بها » لغير هذا وذاك وذلك من الأسباب، والقارئ خليق أن يقولها فى نفس واحد ، لقد هام بها لأنه رجل كامل الرجولة ، ولأنها امرأة كاملة الأنوثة مع ما فيهما بعد ذلك من امتياز واختصاص

والناس يحبون ، ولا يسألون أنفسهم لماذا أحبوا ، ولا يكلفون أبطال قصصهم هذا السؤال . ولكن العقاد هو الذى يصنع ما يقول هام :

« أنا أستمتع بالشىء ثم أبحث عن فلسفته ، وإننى لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس فى جميع جوانب فمه ولهواته ، كما لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه ، وأعمله ، وأذكره ، وأفكر فيه ، وأستقصى معناه ! »

وهذه الجملة مفتاح من مفاتيح أدب العقاد ، ولا سيما غزله الذى يقف أمامه المغلقون ، فيقولون هو غزل عقلى ، تملؤه الفلسفة ، وتقل فيه العاطفة . ولعلهم يعرفون الآن لماذا يتفلسف العقاد بعد الاستمتاع ، ولعلهم يدركون أن هذه إحدى وسائله لتعميق الاحساس بالحياة ، وإفساح جوانبها لمتعة العاطفة ، وكل جوانب النفس الانسانية

* * *

وأنت واجد بعد كل أولئك فى « سارة » مظاهر واضحة لنضوج الحب فى نفس « هام » ونسحة النفس لتلقى أطيافه المختلفة، ونسحة أخرى لتلقى أنواع الجمال، وأنواع المرأة، وإعطاء كل منهن ما تستحقه طبيعتها من الاهتمام والاتجاه . وخبرة تامة بنفسية المرأة الخالدة وغرائزها وخصائصها الأنثوية ، وخبرة مثلها بنفس « سارة » ممثلة هذه المرأة الخالدة ، وتصوير بارع لخصائصها ومميزاتها ، تدرك منه مقدار امتيازها واستحقاقها لحب « هام » وقد عقد عنها فصلا بعنوان « من هى ؟ » ولكنك خليق أن تطلبها كذلك فى غير هذا الفصل من مبدأ القصة إلى نهايتها ، فأنت واجد فى كل صفحة ، وكل موقف جزءاً من « ماهيتها » التى حللها فى الفصل المعنون المحدود

وإنما أجل هذا الاجمال السريع حيث يحلو التفصيل ويجمل لأننى استغرقت الفراغ المحدد لى من « الرسالة » ولم أتحدث عن « غزل العقاد » وإن كنت قد وضعت بعض الأسس للحديث عنه

فالى اللقاء .

« حلوان »

سيد قطب